



مُلْتَقَى الدُّعَاةِ السَّنَوِيِّ الثَّاسِعَ عَشَرَ

بَعْنَوَان

حقيقة العقل وحسن استعماله ومهمته في العدل بين الشهوات والغضب
والحكم في المحسوسات المادية والغيبات المعنوية وأثر كل ذلك على
اتجاه ووجهة الأفراد والجماعات والشعوب والدول

من الأربعاء ٢٩ ذي الحجة ١٤٤٦هـ إلى يوم الجمعة ٢ محرم ١٤٤٧هـ



المحور الثالث

حسن استعمال العقل في العدل بين غرائز النفس
(الشهوة والغضب) وأثره على السلوك والاستقامة

الأستاذ الدكتور جمال فاروق الدقاق

أستاذ الأديان والمذاهب بجامعة الأزهر.
وعميد كلية الدعوة الإسلامية الأسبق.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد

فإن العقل يحتل منزلة رفيعة في المنظومة الفكرية والدينية، إذ يُعدّ أشرف ما وهب الله تعالى للإنسان، والمناط الذي يُميّزه عن سائر المخلوقات. فبالعقل يدرك الإنسان حقائق الوجود، ويميز بين الخير والشر، والحق والباطل، والصالح والفساد. إن حسن استعمال هذه الجوهرة الثمينة هو السبيل الأوحى لتحقيق الكمال البشري المنشود، والارتقاء بالنفس الإنسانية من حضيض الغرائز الحيوانية إلى آفاق الفضيلة والاستقامة. يرتبط موضوع هذا البحث ارتباطاً وثيقاً بحياة الإنسان في شقيها الفردي والاجتماعي، فاستقامة الفرد وصالح سلوكه ينعكسان إيجاباً على استقرار المجتمع وتماسكه، بينما يؤدي الانحراف واتباع الأهواء إلى شيوع الفساد والظلم والتفرق. تعترى النفس البشرية غرائز فطرية، كالشهوة والغضب، وهي قوى دافعة ضرورية لحفظ النوع واستمرار الحياة. إلا أن هذه الغرائز، إن تُركت دون ضابط أو رقيب، فإنها تتحول إلى معاول هدم تُطيح بالقيم الأخلاقية وتُتردي الإنسان إلى مستوى أدنى من البهيمية والسبعية. فالشهوة الجامحة تقود إلى الفواحش والظلم، والغضب العارم يُفضي إلى العدوان والتدمير. وهنا يبرز الدور المحوري للعقل كقائد حكيم وميزان عدل، يعمل على تهذيب هذه الغرائز وتوجيهها الوجهة الصحيحة، بحيث تخدم غايات سامية وتُسهم في بناء الشخصية السوية المتزنة.

لذلك يؤكد الغزالي أن قوة العدل الحقيقي تكمن في ضبط الشهوة والغضب وإخضاعهما لإشارات العقل والشرع، وإنّ حسن استعمال العقل في تحقيق الاعتدال النفسي هو جوهر السلوك القويم والاستقامة^(١).

(١) إحياء علوم الدين، الغزالي (٣/ ٥٨).

إن العدل بين غرائز النفس، والذي يتحقق من خلال سيادة العقل المستنير بنور الشرع، هو الأساس المتين الذي تُبنى عليه الفضائل الأخلاقية كالحكمة والشجاعة والعفة. فالحكمة هي ثمرة العقل الراجح الذي يضع الأمور في نصابها، والشجاعة هي ضبط لقوة الغضب وتوجيهها نحو الدفاع عن الحق ونصرة المظلوم، والعفة هي تحكم في قوة الشهوة وصونها عن المحرمات. وعندما تسود هذه الأخلاق في المجتمع، فإنها تُثمر عدلاً وتراحماً وتعاوناً بين أفراده، مما يؤدي إلى صلاحه ورفقيه.

يهدف هذا البحث إلى استكشاف العلاقة بين العقل والغرائز، وبيان كيفية تحقيق التوازن المنشود بينهما من خلال حسن استعمال العقل والالتزام بتعاليم الشرع. كما يسعى إلى تحليل أثر هذا التوازن، أو اختلاله، على سلوك الفرد واستقامته، وعلى صلاح المجتمع أو فساد، مستعيناً في ذلك بآراء الفلاسفة والمفكرين، ومستلهاً من النصوص الشرعية والتجارب التاريخية، بهدف الوصول إلى فهم أعمق لهذه القضية الجوهرية وتقديم رؤى تساهم في تحقيق الاستقامة الفردية والصلاح المجتمعي.

المطلب الأول: تعريفات مفاهيمية

العقل: قدرة روحية وُهبّت للإنسان تُدرك الحقائق والفرق بين الصواب والخطأ. وقد صف الغزالي العقل بأنّه: "جند الله ومن جوهر الملائكة، يساعد الإنسان على إدراك الحق^(٢). وقد جاء في تعبيره أنّ العقل أرفع طبائع النفس، وهو معيار الفهم والتفكير.

الغرائز والشهوة: تشير الشهوة إلى الرغبات الحيوانية المستلذة، وهي في أصلها فطرة يلزمها العقل لضبطها. ويصرح الغزالي بضرورة ضبط الشهوة بالعفة: تأديب قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع^(٣).
الغضب: انفعال يؤدي إلى دفع ما يهدد الإنسان أو الانتقام، وهو من قوة النفس الغضبية. وحسن الغضب عند الغزالي أن تكون حركته على حد ما تقتضيه الحكمة، وإلا فهو عدو للعقل مثل الوحش^(٤). فعلى سبيل المثال يصف الغزالي الغضب بأنّه غولُ العقل؛ فإذا ضعفت جند العقل هجم جند الشيطان، أي يفقد العقل توازنه أمام شهوة الغضب^(٥).

استقامة النفس: تعني السير في طريق الاعتدال والسلوك القويم. ويشير الغزالي إلى أنّ الاستقامة على سواء السبيل في غاية الصعوبة، وأنّ المطلوب الاجتهاد في الاقتراب منها بالمحافظة على الأخلاق الحسنة^(٦). فالاستقامة – في نظره – ثمر حتمية ضبط النفس والتزام العمل الصالح.

(٢) ميزان العمل، الغزالي (ص: ٢٢-٢٣).

(٣) إحياء علوم الدين، الغزالي (٣/ ٥٤).

(٤) المرجع السابق، نفس الموضع.

(٥) إحياء علوم الدين، الغزالي (٣/ ٣٢).

(٦) إحياء علوم الدين، الغزالي (٣/ ٦٤).

المطلب الثاني: قدرة العقل على السعي إلى الكمال الإنساني

إن العقل، بوصفه القوة المدركة والمميزة التي حبا الله بها الإنسان، يمثل خط الدفاع الأول وحجر الزاوية في رحلة الارتقاء نحو الكمال الإنساني. فبينما تشترك النفس البشرية مع البهائم في غرائز أساسية كالشهوة والغضب، فإن العقل هو ما يمنح الإنسان القدرة على تجاوز هذه الدوافع الفطرية العمياء وتوجيهها نحو غايات أسمى. يكمن دور العقل الجوهرى في قدرته على التمييز الدقيق بين ما هو خير وصالح ويؤدي إلى الارتقاء الروحي والأخلاقي، وبين ما هو شر وفساد ويؤدي الإنسان إلى درك الانحطاط، مقرباً به من مستوى السبعية المفترسة أو البهيمية المنقادة لشهواتها بلا وعي أو روية.

يُعدّ التمييز بين الخير والشر أولى وظائف العقل وأهمها. فالقرآن الكريم، في مواضع عدة، يحث الإنسان على استخدام عقله للتفكير والتدبر والنظر في آيات الله الكونية والشرعية، ليدرك الحق من الباطل والصواب من الخطأ. يقول تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} (الحج: ٤٦).

هذه الدعوة المتكررة للتعقل تؤكد أن العقل هو الأداة الفطرية التي تمكن الإنسان من إدراك القوانين الأخلاقية الكلية وفهم الحكمة من وراء التشريعات الإلهية. فالعقل السليم، المستنير بنور الوحي، قادر على إدراك حسن العدل وقبح الظلم، وفضل الأمانة وخسة الخيانة، وجمال الإحسان وبشاعة الإساءة. هذا الإدراك هو الأساس الذي يبني عليه الإنسان منظومته القيمية ويوجه سلوكه. وكما أشار الفكر الإسلامي، فإن العقل هو "الحابس عن ذميم القول والفعل"^(٧). وهو ما يمنع الإنسان من التورط في المهالك ويضبط تصرفاته^(٨).

لا يقتصر دور العقل على مجرد التمييز النظري بين الخير والشر، بل يمتد ليشمل توجيه الغرائز الفطرية، وعلى رأسها الشهوة والغضب، نحو تحقيق الكمال البشري. فالشهوة، كقوة دافعة نحو اللذة

(٧) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، (٤/٦٩).

(٨) العقل ومكانته في الكتاب والسنة، عبد الله الربابعة، منشور على موقع دار الإفتاء الأردنية، عبد الله ٢٢ ديسمبر ٢٠١٦م.

وطلب المنافع، والغضب، كقوة دافعة لرد الأذى والدفاع عن النفس، هما طاقتان ضروريتان لحياة الإنسان. لكنهما، إن تركتا دون توجيه عقلي، أصبحتا مصدراً للشّر والفساد.

إن الشهوة الجامحة تقود إلى الانغماس في الملذات المحرمة، والجشع، والأنانية، مما يحط من قدر الإنسان ويجعله أسيراً لغرائزه البهيمية. والغضب غير المنضبط يقود إلى العدوان، والظلم، والتدمير، مقرباً الإنسان من الطبيعة السبعية المتوحشة. هنا يتدخل العقل ليقوم بدور القائد الحكيم، فيضع لكل قوة حدودها ومسارها الصحيح. يوجه العقل الشهوة نحو الحلال الطيب، ويضبطها بضوابط الشرع والأخلاق، فتتحول إلى طاقة إيجابية تدفع الإنسان للسعي في مناكب الأرض، وعمارة الكون، وتكوين الأسرة، وتحقيق السعادة المشروعة.

ويوجه العقل الغضب نحو الدفاع عن الحق، ونصرة المظلوم، ومقاومة الظلم والفساد، فيتحول إلى شجاعة محمودة وقوة بناءة. وقد أشار فلاسفة كأفلاطون إلى ضرورة سيادة الجزء العقلاني من النفس على الجزئين الغضبي والشهواني لتحقيق العدالة في الفرد.

ويرى بعض العلماء كالإمام الغزالي أن النفس تجمع قوة الغضب والشهوة، وأن حقيقتها تكمن في اللطيفة الربانية التي يجب أن تسود على هذه القوى^(٩).

دور العقل في ضبط الشهوة:

يسعى العقل إلى توجيه الشهوة لاختيارات تعود بالنفع على الإنسان. يرى الغزالي أن العفة (ضبط الشهوة) فطرة نفسية تُفسح المجال للعقل والشرع في توجيه الرغبات^(١٠). فالإنسان السوي عقلاً يجعل شهواته تحت طاعة العقل: فهو مثل فارس مروض يجري حسب أوامره^(١١). وبذلك تتولد قوة العفة

(٩) مقال: النفس البشرية بين فلسفة الغزالي ونظرية فرويد، منشور على موقع نون بوست بتاريخ: ١٣ سبتمبر ٢٠١٨ م.

(١٠) إحياء علوم الدين، الغزالي (٣/ ٥٤).

(١١) المرجع السابق، نفس الموضع.

فتنشأ أخلاقٌ حميدة (سخاء، حياء، قناعة، ورع...)، بينما إذا مالت الشهوة عن الاعتدال ظهرت الرذائل (الحرص والشره والتبذير...).

وبخلاف من يدع شهواته تقوده، يؤكد ابن تيمية أن الإنسان «خلق بقوى ثلاث: قوة العقل، وقوة الغضب، وقوة الشهوة»، وأن العقل أعلى هذه القوى. ولذا إذا غلبت شهوة الفرد عقله فهو دون منزلة البهائم، وإذا غلب العقل الشهوة فهو فوق منزلة الملائكة^(١٢).

فالمنهج الإسلامي يلح على استخدام العقل لضبط الشهوة (مثلاً بالصوم، والتهجد، والتحصن بالأذكار)، ومن ذلك قوله الغزالي مجازياً: الشهوة مثالها «الفرس الذي يركب في طلب الصيد فإنه تارة مروض مؤدباً وتارة جموحاً»^(١٣). فمن أدرك قوة العقل فأسلم لها موجبات الشهوات صارت شهواته مُسخرة له فيما يفيد، وإلا كان كالفرس الجامح الذي لا يُقهر.

دور العقل في ضبط الغضب:

وظيفة العقل هنا هي التزام الحلم (كظم الغيظ). فعند الغزالي تكون شجاعة النفس (فصحة الغضب) في أن يكون انقباضها وانبساطها على حد ما تقتضيه الحكمة^(١٤).

فإذا بسط الإنسان الغضب بلا حكمة كان ذلك تهوراً يُولد الكبر والعجب، وإذا كتمه بلا حكمة كان جبناً وضعفاً. لقد شبه الغزالي الغضب بـ«كلب الصيد»، فلا بدّ من تدريب كي لا يغلبه هيجان الشهوة^(١٥).

ومن هذا المنطلق يقول ابن تيمية: «الغضب والحمية تحمِلُ المرءَ على فعل ما يضره وترك ما ينفعه»^(١٦). وهذا دليلٌ على أن الغضب منفلاً من العقل يهلك صاحبه. كذلك يشير ابن القيم إلى أن

(١٢) مجموع الفتاوى، ابن تيمية (١٥/٤٢٨).

(١٣) إحياء علوم الدين، الغزالي (٣/٥٤).

(١٤) المرجع السابق، نفس الموضوع.

(١٥) المرجع السابق، نفس الموضوع.

(١٦) مجموع الفتاوى، ابن تيمية (٧/٥٤٠).

الغضب «غولُ العقل يغتاله كما يغتال الذئبُ الشاة» (١٧). أي أنه يقتل صوابية العقل كما يقتل الذئب الغنيمة. وكل ذلك يؤكد ضرورة أن يسيطر العقل على الغضب؛ فالإنسان العاقل كما أشارت السنة يجتنب إثارة النار في قلبه، ويندب نفسه بالاستغفار أو الخروج من الموضع المثير عند الغضب. فإن نجحت الحاكمة العقلية بإخضاع الغضب، تولد في النفس الفضائل (الحلم، كظم الغيظ، التواضع)، وتُسَدِّد القرارات. وإلا فقد تتحول الأحكام إلى انفعالات عمياء تجرّ إلى المعاصي والإساءة للآخرين.

أهمية العقل في ضبط السلوك:

إن إهمال العقل، وتعطيل دوره في التمييز والتوجيه، وإطلاق العنان للغرائز لتتحكم في سلوك الإنسان، هو الخطر الأكبر الذي يهدد إنسانيته ويقوض استقامته. عندما يتخلى الإنسان عن عقله ويتبع هواه وشهواته وغضبه بلا روية، فإنه ينحدر من مرتبة التكريم التي وهبه الله إياها {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ} (الإسراء: ٧٠) إلى مستوى أدنى من الحيوان الأعجم. فالبهيمة تنقاد لشهوتها دون تفكير في العواقب، والسبع يندفع لافتراس فريسته بقوة غضبه دون وازع من ضمير أو خلق. والإنسان الذي يتبع غرائزه بإفراط يصبح شبيهاً بهما، بل قد يكون أضل سبيلاً لأنه أوتي العقل لكنه عطّله بإرادته. يقول تعالى موبخاً الذين لا يستخدمون عقولهم: {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا} (الفرقان: ٤٤).

إن الانقياد الأعمى للشهوة يولد الفواحش والظلم الاجتماعي، والانقياد للغضب يولد العنف والحروب والدمار. وكما أن العقل هو أداة الفهم والتمييز، فإن إهماله يؤدي إلى الجهل والضلال واتباع الظنون والأوهام، مما يفتح الباب أمام الخرافات والشعوذة والانحرافات الفكرية والسلوكية التي حاربها الإسلام وشنّع على معتنقيها^(١٨). فالاستقامة الحقيقية لا تتحقق إلا بسيادة العقل المستنير بالشرع على مملكة النفس، وضبطه لجميع القوى والغرائز وتوجيهها نحو الخير والكمال.

(١٧) التبيان في أبيان القرآن، ابن القيم (ص: ٤١٧).

(١٨) العقل ومكانته في الكتاب والسنة، الرابعة، موقع دار الإفتاء الأردنية.

المطلب الثالث: أثر انضباط الغرائز (الشهوة والغضب) بنظر الشرع والعقل في التوصل إلى اكتساب أصول الأخلاق

بعد أن تبين الدور المحوري للعقل في تمييز مسالك الكمال الإنساني عن مهاوي الانحدار الغرائزي، يتجلى بوضوح أن مجرد التمييز لا يكفي لتحقيق الاستقامة الفعلية. فالنفس البشرية، بتركيبها المعقدة، تظل ميداناً لصراع دائم بين سلطان العقل ونزعات الغرائز، وتحديداً قوتي الشهوة والغضب. وهنا يبرز دورٌ تكامليٌّ حاسمٌ لكل من العقل المستنير وهدى الشرع القويم في عملية ضبط هذه القوى وتوجيهها، ليس فقط لكفها عن الشر، بل للارتقاء بها لتصبح مصدراً لاكتساب الفضائل وأصول الأخلاق الراسخة: الحكمة، والشجاعة، والعفة.

إن هذا الانضباط المزدوج، العقلي والشرعي، هو السبيل الأوحـد لتحويل الطاقات الغريزية الخام من معاول هدم إلى أدوات بناء للشخصية السوية والمجتمع الفاضل.

يلعب العقل دور القائد والموجه في مملكة النفس، فهو الذي يدرك المقاصد والغايات، ويوازن بين المنافع والمضار، ويضع الخطط والاستراتيجيات لترويض الغرائز. يدرك العقل أن الإفراط في اتباع الشهوة يقود إلى الشرّ والبهيمية والانحلال، وأن التفریط فيها بقمعها كلياً يؤدي إلى الجمود وتعطيل مصالح ضرورية للحياة. وكذلك، يدرك أن الإفراط في الغضب يقود إلى التهور والظلم والعدوان، وأن التفریط فيه بالجبن والخنوع يؤدي إلى ضياع الحقوق والذل. لذا يسعى العقل إلى تحقيق التوازن والاعتدال، وهو ما يعرف في الفلسفة الأخلاقية، لاسيما عند أرسطو ومن تأثر به كالغزالي، بمبدأ "الوسط الذهبي" أو الفضيلة كوسط بين رذيلتين.

فالعقل هو الذي يحدد هذا الوسط لكل قوة، فيوجه الشهوة نحو قضاء الحاجات الضرورية والمباحة بالقدر المناسب وفي الوقت المناسب وبالطريقة المناسبة، ويوجه الغضب نحو الدفاع عن النفس والعرض والحق بالقدر اللازم دون تجاوز أو عدوان. يشير الإمام الغزالي في "إحياء علوم الدين" إلى أن صلاح قوتي الشهوة والغضب يكمن في انقيادهما لإشارة العقل والشرع، وأن العدل هو ضبطهما تحت هذه

الإشارة^(١٩). فالعقل يضع الميزان، ويرسم الحدود، ويقدم الحجج والبراهين لإقناع النفس بضرورة الالتزام.

ومع أهمية دور العقل، إلا أنه قد يضعف أمام إلحاح الغرائز، أو قد تشوبه الأهواء والمصالح الذاتية، أو قد يعجز عن إدراك كل دقائق الخير والشر، خاصة في الأمور الغيبية أو المعقدة. هنا يأتي دور الشرع ليكمل دور العقل ويقويه ويهديه. فالشريعة الإسلامية، بما تحمله من أوامر ونواهٍ إلهية، تقدم إطاراً مرجعياً ثابتاً ومفصلاً لضبط الغرائز.

لم تهدف الشريعة إلى استئصال الغرائز، بل إلى تهذيبها وتوجيهها. ففي جانب الشهوة، شرع الإسلام الزواج كإطار طاهر ونظيف لتلبية الحاجة الجنسية وتكوين الأسرة، وحرّم الزنا والفواحش. ونظم أمور الطعام والشراب والمال، فأحل الطيبات وحرّم الخبائث، ودعا إلى الاعتدال ونبذ الإسراف والتبذير والجشع. وفي جانب الغضب، أباح الإسلام الدفاع عن النفس ورد العدوان بالحق، ولكنه حث على الصبر وكظم الغيظ والعفو والصفح، وجعل للقصاص والحدود ضوابط دقيقة تمنع الثأر والانتقام الأعمى. يقول تعالى: {وَالْكَافِرِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} (آل عمران: ١٣٤).

فالشرع يقدم للعقل القواعد الواضحة، والمعايير الثابتة، والوعد والوعيد الإلهي الذي يعزز سلطة العقل على الغرائز. وكما يؤكد الغزالي وغيره من علماء الإسلام، فإن العقل والشرع متلازمان، فالعقل كالבصر والشرع كالشعاع، لا غنى لأحدهما عن الآخر في إدراك الحقائق وتحقيق الهداية^(٢٠). فالشرع يرشد العقل إلى ما قد يخفى عليه، والعقل يفهم نصوص الشرع ويحسن تطبيقها في الواقع المتغير.

إن النتيجة المباشرة لهذا الانضباط المزدوج للشهوة والغضب تحت سلطان العقل وهدى الشرع هي اكتساب أمهات الفضائل وأصول الأخلاق: الحكمة والشجاعة والعفة. هذه الفضائل تمثل الحالة المثالية لكل قوة من قوى النفس الرئيسية عندما تخضع للتوجيه الصحيح:

(١٩) إحياء علوم الدين، الغزالي، (٣/ ٥٤).

(٢٠) معارج القدس في مدراج معرفة النفس، الغزالي، (ص: ٥٧).

١- الحكمة: هي فضيلة القوة العاقلة ذاتها. عندما يتحرر العقل من أسر الهوى والشهوة والغضب، ويستنير بنور الشرع، فإنه يصبح قادراً على إدراك حقائق الأمور على ما هي عليه، والتمييز الدقيق بين الخير والشر، والحق والباطل، والصواب والخطأ، واختيار الوسائل المناسبة لتحقيق الغايات المحمودة. الحكمة ليست مجرد معرفة نظرية، بل هي بصيرة نافذة وقدرة على اتخاذ القرارات السليمة في المواقف المختلفة. إنها رأس الفضائل ومنبعها، وبها يتم توجيه القوى الأخرى. وقد أشار الفلاسفة المسلمون كالكندي والفارابي إلى أن غاية الفلسفة هي التشبه بالإله بقدر طاقة الإنسان، وذلك لا يتم إلا بتحصيل الحكمة النظرية والعملية.

٢- الشجاعة: هي فضيلة القوة الغضبية عندما تنضبط بإشارة العقل والشرع. ليست الشجاعة هي التهور والاندفاع الأعمى، وليست هي الجبن والخنوع، بل هي الوسط بينهما. الشجاع هو من يقدم حين يحسن الإقدام، ويحجم حين يحسن الإحجام، لا يخاف مما لا ينبغي الخوف منه، ويثبت في مواطن الحق والدفاع عن القيم والمقدسات. إنها القدرة على التحكم في انفعال الغضب وتوجيهه نحو الأهداف النبيلة، كالدفاع عن الدين والنفس والعرض والمال والوطن، ومقاومة الظلم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقد مدح الإسلام الشجاعة في الحق، واعتبر الجهاد ذروة سنام الإسلام، ولكنه وضع له ضوابط تمنع العدوان والبغي.

٣- العفة: هي فضيلة القوة الشهوية عندما تنضبط بإشارة العقل والشرع. ليست العفة هي كبت الشهوة بالكلية (الخمود)، وليست هي الانغماس فيها بلا حدود (الشَّرَّه والفجور)، بل هي الوسط بينهما. العفيف هو من يتحكم في شهواته، ويقتصر على الحلال الطيب منها بالقدر الذي يحفظ به حياته ويحقق مصالحه المشروعة، ويتجنب المحرمات والشبهات. تشمل العفة ضبط شهوة البطن والفرج والمال والجاه وغيرها. إنها القدرة على الصبر أمام المغريات، والتحكم في النفس الأمارة بالسوء، والارتقاء بالرغبات من المستوى الحيواني إلى المستوى الإنساني اللائق. وقد حث الإسلام على العفة، وجعلها من صفات

المؤمنين المفلحين: {وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ} (المؤمنون: ٥-٦).

وهكذا، يتضح أن عملية تهذيب النفس وضبط غرائزها ليست مجرد كف عن الشر، بل هي عملية بناء إيجابي للفضائل الأساسية. فالعقل والشرع يعملان معاً كمرشد وميزان، يحولان طاقة الشهوة والغضب من قوى هدامة إلى قوى بناءة، تثمر الحكمة في العقل، والشجاعة في القلب، والعفة في السلوك. وهذه الفضائل الثلاث (الحكمة، الشجاعة، العفة) هي الأركان التي يقوم عليها صرح الأخلاق المتكاملة، ومن اجتماعها وتوازنها تنشأ فضيلة [العدالة] بمعناها الشامل، وهي إعطاء كل قوة من قوى النفس حقها ووضعها في مرتبتها الصحيحة تحت قيادة العقل والشرع، وهو ما يمثل جوهر الاستقامة والكمال الأخلاقي المنشود.

المطلب الرابع: أثر انضباط الغرائز بالشرع والعقل على صلاح البشرية

إن صلاح الفرد واستقامته الأخلاقية، الناتجة عن انضباط غرائزه تحت سلطان العقل وهدى الشرع، لا تقف آثارها عند حدود ذاته، بل تمتد لتشمل نسيج المجتمع بأسره، وتؤثر بشكل عميق ومباشر في طبيعة العلاقات الإنسانية السائدة وفي مصير الحضارات والأمم. فالمجتمع ليس إلا مجموعة من الأفراد، وصلاحه من صلاحهم، وفساده من فسادهم. وعندما يسود الانضباط الأخلاقي، وتُحكَم الشهوات بنور العفة، ويُوَجَّه الغضب بقوة الشجاعة المنضبطة بالحكمة، فإن ثمار ذلك تتجلى عدلاً يملأ التعاملات، وتراحماً يربط القلوب، وتعاوناً يبنى صروح التقدم والازدهار. وعلى النقيض تماماً، فإن اختلال هذا الميزان، وهيمنة الغرائز الجامحة على سلوك الأفراد، يؤدي حتماً إلى تفشي الظلم والتباغض والتفرق، ويقوض أسس الاستقرار الاجتماعي، ويمهد الطريق لانحيار المجتمعات والحضارات.

يتجلى أثر انضباط الغرائز في صلاح البشرية أولاً في تحقيق العدل. فالعدل، بمعناه الشامل، هو إعطاء كل ذي حق حقه، ووضع الأمور في نصابها الصحيح. وهذا لا يمكن أن يتحقق إلا عندما يتحرر الأفراد من أنانية الشهوة وطغيان الغضب. فالشهوة غير المنضبطة تدفع الإنسان إلى الاستئثار بالحقوق، وأكل أموال الناس بالباطل، واستغلال ضعف الآخرين لتحقيق مآربه. والغضب غير المنضبط يقود إلى العدوان، والبغي، وهضم الحقوق، والجور في الحكم والقضاء. أما عندما تتهذب الشهوة بالعفة، ويكتفي الإنسان بالحلال الطيب، وعندما يتهذب الغضب بالشجاعة الموجهة بالحكمة، ويتحلى الفرد بالصبر والإنصاف، فإن ذلك يمهد الطريق لإقامة علاقات عادلة بين الأفراد، سواء في المعاملات المالية أو الاجتماعية أو السياسية. إن المجتمع الذي يسوده أفراد يتحلون بالحكمة والشجاعة والعفة هو مجتمع أقرب إلى تحقيق العدالة الاجتماعية، وحماية الحقوق، ومنع الظلم بشتى صوره. وقد أكدت الشريعة الإسلامية على قيمة العدل وجعلته من أسمى غاياتها: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} (النحل: ٩٠). فالعدل هنا مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالنهاي عن الفحشاء (الناتجة عن الشهوة) والمنكر والبغي (الناتج عن الغضب).

ثانياً، يثمر انضباط الغرائز تراحماً وتعاطفاً بين أفراد المجتمع. فالشهوة الأنانية تجعل الإنسان لا يرى إلا مصلحته، ولا يهتم إلا بإشباع رغباته، مما يولد قسوة في القلب وجفاء في التعامل. والغضب العامر يقطع أواصر المودة، ويزرع الأحقاد والضغائن. أما العفة، فإنها تعلم الإنسان القناعة والرضا، وتفتح قلبه للإيثار ومساعدة المحتاجين. والشجاعة الحكيمة، المقترنة بكظم الغيظ والعفو، تزرع المحبة والتسامح بين الناس. عندما يتحرر الإنسان من عبودية شهوته وغضبه، يصبح أكثر قدرة على الشعور بآلام الآخرين، ومشاركتهم أفراحهم وأتراحهم، ومد يد العون لهم. إن المجتمع الذي تسوده قيم العفة والشجاعة والحكمة هو مجتمع تسوده الرحمة، ويتعاون أفراده على البر والتقوى، ويتكافلون في السراء والضراء. وقد وصف الله تعالى عباده المؤمنين بقوله: {تُحَمَّدُ رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} (الفتح: ٢٩)، فالشدة في موضعها والرحمة في موضعها هي نتاج الانضباط الأخلاقي.

ثالثاً، يؤدي انضباط الغرائز إلى شيوع التعاون والتآزر في المجتمع. فالأنانية الناتجة عن الشهوة، والعدوانية الناتجة عن الغضب، كلاهما يقوض الثقة بين الأفراد ويهدم جسور التعاون. أما عندما يسود العدل والتراحم، المبنيان على ضبط الغرائز، فإن ذلك يخلق بيئة صحية للتعاون المثمر في جميع المجالات. فالناس يأمن بعضهم بعضاً، ويثقون في نواياهم وتعاملاتهم، ويتعاونون لتحقيق المصالح المشتركة، سواء كانت اقتصادية أو اجتماعية أو علمية. إن بناء الحضارات وازدهار الأمم يعتمد بشكل أساسي على قدرة أفرادها على التعاون والتكامل، وهذا لا يمكن أن يتحقق إلا في ظل منظومة أخلاقية راسخة تضبط النزعات الفردية وتوجهها نحو الصالح العام.

وعلى الجانب الآخر، فإن التاريخ الإنساني مليء بالشواهد والأمثلة على أن اختلال ميزان العقل والغرائز، وهيمنة الشهوات والأهواء، كان سبباً رئيسياً في فساد المجتمعات وانهايار الحضارات. عندما يفقد العقل سيطرته، وتنفلت قوى الشهوة والغضب من عقالها، فإن الفساد يستشري في الأرض. فالانغماس في الشهوات والملذات، والسعي وراء الترف والبذخ، يؤدي إلى ضعف الهمم، وموت النخوة، وانتشار الفواحش والرذائل، وتفكك الأسر، وضياع القيم. وهذا ما حدث في كثير من الحضارات

البائدة، كالحضارة الرومانية في أواخر عهدها، حيث أدى الانحلال الأخلاقي والترف المفرط إلى ضعف الدولة وتفككها وسقوطها في النهاية.

كما أن هيمنة الغضب والظلم والعدوان تؤدي إلى الصراعات الداخلية، والحروب الأهلية، وسفك الدماء، وضياع الأمن والاستقرار. وهذا ما شهدته تاريخ المسلمين في الأندلس، حيث أدى التناحر بين ملوك الطوائف، مدفوعاً بحب السلطة والغضب والتنافس، بالإضافة إلى الانغماس في الترف واللهو، إلى إضعاف الدولة وتمكين الأعداء منها، وانتهى الأمر بسقوط الأندلس وضياع حضارتها الزاهرة. ويؤكد ابن خلدون في مقدمته على أن الظلم مؤذن بخراب العمران، وأن الترف الزائد هو من أسباب انهيار الدول (٢١).

إن أسباب الفساد الاجتماعي عند اختلال ضبط الغرائز متعددة ومتشابكة. فعندما تسيطر الشهوة، تنتشر الأنانية المفرطة، والجشع، والفساد المالي والإداري، والرشوة، والمحسوبية. وتنتشر الفواحش والمخدرات، وتتفكك الروابط الأسرية، وتضيع الأمانة، ويصبح الغش والخداع هو السائد في التعاملات. وعندما يسيطر الغضب، ينتشر الظلم والاستبداد، وتهدر الحقوق والحريات، وتندلع الصراعات والفتن، ويسود قانون القوة بدلاً من قوة القانون، وينعدم الأمن، وتتوقف عجلة التنمية والتقدم. إن المجتمع الذي تسيطر عليه غرائزه هو مجتمع مريض، يفقد تماسكه الداخلي، ويصبح فريسة سهلة للأعداء الخارجيين، ومصيره المحتوم هو التدهور والانحلال. وكما قال الشاعر أحمد شوقي:

وَإِنَّمَا الْأُمَمُ الْأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ *** فَإِنْ هُمْ ذَهَبَتْ أَخْلَاقُهُمْ ذَهَبُوا

فالأخلاق، التي هي ثمرة انضباط الغرائز بالعقل والشرع، هي السياج الحامي للمجتمعات، والضمانة الأساسية لصلاحها واستمرارها. وبدون هذا السياج، تتداعى الأمم وتنهار الحضارات، مهما بلغت من قوة مادية أو تقدم علمي.

الخاتمة

في ختام هذا البحث، الذي سعى إلى استكشاف العلاقة المعقدة بين العقل والغرائز وأثرها العميق على سلوك الفرد واستقامة المجتمع، تتجلى بوضوح حقيقة مركزية مفادها أن حسن استعمال العقل، المستنير بهدي الشرع، هو الضمانة الأساسية لتحقيق التوازن المنشود بين متطلبات النفس البشرية وغاياتها السامية. لقد تبين أن العقل ليس مجرد أداة للإدراك والتمييز، بل هو القائد الذي يجب أن يتولى زمام مملكة النفس، موجهاً قوى الشهوة والغضب نحو مسارات الفضيلة والاعتدال، ليحولها من طاقات هدامة إلى قوى بناءة تسهم في تحقيق الكمال الإنساني على المستويين الفردي والجماعي.

نتائج البحث:

وقد خلص البحث إلى جملة من النتائج الرئيسية، أبرزها:

١. مركزية العقل في التجربة الإنسانية: أكد البحث على أن العقل هو أشرف ما وهب للإنسان، وهو مناط التكليف والمسؤولية، والأداة الجوهرية التي تميزه عن سائر المخلوقات، وتمكنه من إدراك الخير والشر والسعي نحو الكمال.
٢. ضرورة التكامل بين العقل والشرع: تبين أن العقل، رغم أهميته، يحتاج إلى هدي الشرع ليقوم مساره ويكمل رؤيته، خاصة في مواجهة إلحاح الغرائز وتعقيدات الحياة. فالشرع يقدم للعقل المبادئ الثابتة والضوابط الواضحة التي تعينه على ضبط الشهوة والغضب وتوجيهها الوجهة الصحيحة.
٣. الانضباط الغرائزي أساس الفضائل: أوضح البحث كيف أن عملية ضبط قوتي الشهوة والغضب تحت سلطان العقل والشرع ليست مجرد كف عن الرذائل، بل هي عملية إيجابية تثمر أصول الأخلاق وأمهات الفضائل: الحكمة في القوة العاقلة، والشجاعة في القوة الغضبية، والعفة في القوة الشهوية. وأن توازن هذه الفضائل هو جوهر العدالة والاستقامة.

٤. الأثر المجتمعي للانضباط الأخلاقي: أظهر التحليل، مدعوماً بشواهد تاريخية، أن صلاح المجتمعات ورفقها وازدهارها يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمدى شيوع الانضباط الأخلاقي بين أفرادها. فالعدل والتراحم

والتعاون هي ثمار طبيعية لمجتمع يتحلّى أفرادُه بالحكمة والشجاعة والعفة. وعلى النقيض، فإن الانحلال الأخلاقي، الناتج عن هيمنة الغرائز غير المنضبطة، هو السبب الجذري للظلم والتباغض والتفرق، ويؤدي حتماً إلى فساد المجتمعات وانهيار الحضارات.

توصيات البحث:

وفي ضوء هذه النتائج، ومع استحضار التحديات التي تواجه المجتمعات الحديثة، بفعل عوامل كالعولمة، وثورة المعلومات، وتنامي النزعة الاستهلاكية والمادية، وتأثير الإعلام ووسائل التواصل الاجتماعي التي قد تثير الغرائز وتزين الانحراف، يقدم البحث التوصيات التالية للمساهمة في تعزيز ضبط الغرائز وتحقيق الاستقامة الفردية والمجتمعية:

١. تعزيز التربية الأخلاقية والدينية: يجب إيلاء اهتمام أكبر لغرس القيم الأخلاقية والمبادئ الدينية في نفوس الناشئة منذ الصغر، داخل الأسرة والمدرسة والمجتمع، مع التركيز على أهمية العقل ودوره في ضبط النفس، وتقديم القدوة الحسنة.
٢. تفعيل دور المؤسسات التعليمية والثقافية: ينبغي للمناهج الدراسية والبرامج الثقافية والإعلامية أن تسهم في بناء الوعي بأهمية الانضباط الأخلاقي، وتحليل مخاطر الانسياق وراء الشهوات والأهواء، وتقديم نماذج إيجابية للسلوك القويم.
٣. تشجيع الحوار الفكري والفلسفي: من الضروري إحياء النقاش الهادف حول القضايا الأخلاقية الكبرى، ودور العقل والدين في مواجهة التحديات المعاصرة، وتشجيع المفكرين والعلماء على تقديم رؤى وحلول مبتكرة لتعزيز القيم في المجتمع.
٤. إصلاح البيئة الاجتماعية: يتطلب الأمر جهوداً مجتمعية لخلق بيئة تعزز الفضيلة وتنبذ الرذيلة، من خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالحكمة والموعظة الحسنة، وتوفير الفرص للشباب للانخراط في أنشطة بناءة، ومحاربة مظاهر الفساد والانحلال.

٥. سن التشريعات والسياسات الداعمة: يمكن للدول أن تلعب دوراً هاماً من خلال سن القوانين التي تحمي الأخلاق العامة، وتنظم عمل وسائل الإعلام، وتكافح الفساد، وتشجع على الزواج وتكوين الأسرة، وتوفر بيئة اقتصادية واجتماعية عادلة تقلل من دوافع الانحراف.

وأخيراً، يؤكد البحث على أن موضوع العلاقة بين العقل والغرائز يظل مجالاً خصباً للبحث والدراسة المستمرة. ففهم آليات عمل النفس البشرية، وتأثير العوامل المختلفة (النفسية، الاجتماعية، الثقافية، الاقتصادية) على السلوك الأخلاقي، وتطوير استراتيجيات فعالة لتهديب النفس في ظل المتغيرات المتسارعة، كلها قضايا تستدعي مزيداً من البحث العلمي الرصين والاجتهاد الفكري المتواصل. إن السعي نحو تحقيق التوازن بين العقل والغرائز ليس مجرد مطلب فردي، بل هو ضرورة حضارية لضمان مستقبل أفضل للبشرية، يسوده العدل والتراحم والتعاون والسلام.

فهرس الموضوعات

٣	مقدمة.....
٥	المطلب الأول: تعريفات مفاهيمية.....
٦	المطلب الثاني: قدرة العقل على السعي إلى الكمال الإنساني.....
٧	دور العقل في ضبط الشهوة:.....
٨	دور العقل في ضبط الغضب:.....
٩	أهمية العقل في ضبط السلوك:.....
	المطلب الثالث: أثر انضباط الغرائز (الشهوة والغضب) بنظر الشرع والعقل في التوصل إلى اكتساب أصول الأخلاق.....
١١	
١٥	المطلب الرابع: أثر انضباط الغرائز بالشرع والعقل على صلاح البشرية.....
١٩	الخاتمة.....
١٩	نتائج البحث:.....
٢٠	توصيات البحث:.....
٢٢	فهرس الموضوعات.....

